الفصل الثالث

ألِأنكَ ابنُ أميرِ المؤمنينَ؟!

رأيناه كيف وُهب طبيعة سوية متفوقة باهرة.

ورأيناه كيف وصل طبيعته هذه بالله، ووضعَها فى خدمته وعند أمره.

وإنسان يتوافر له هذا، لابد أن يكون إحساسه بالمسئولية مشحوذًا وعارمًا.

وإن عمر لذلك الإنسان.

ينفعل بالمسئولية. ويتبتّل لها، ويقبل عليها، فى مثل عزم المرسلين..

والمسئولية لديه لا تتجزأ، ولا تتنوع، ولا تتفاوَت..

ليس هناك مسئوليات صغيرة وأخرى كبيرة.. مسئوليات عادية وأخرى فوق مستوى العادة.

هناك مسئوليات وحسب..

و«عمـــر» أمام هذه المســئوليات. هو «عمر» الذى يحتشــد لكل تبعة ولكل عمل، احتشــادًا لا تتفاوت درجاته.. لأنه يتصرف وَفق طبيعته القوية الأمينة المؤمنة.

وطبيعته هى الأخرى لا تتجزأ، ولا تتقسَّم.. كل عمل من أعمال «عمر» نجد فيه «عمر» كله.

ضع عينيك على أية واقعة من وقائع حياته، تجد فيها شــمائله كلهــا – عدلــه، ورعه، زهده، إيمانه، شــدته، لينــه، عظمته، بساطته!!

وهو لا يتحمل من المسئولية القدْر الذى يخصه، ويبرئ ذمته، بــل يحمل منها القــدر الذى يتطلبه الموقــف جميعه، وتُحقق به المسئولية كل ذاتها، ولا يسأل نفسه ساعتئذ إن كان وحده، أم كان معه نُصَراء.

إن بيــن جوانحــه، ومِلء نفســه تفانيًا رهبانيًّا، لا يســأل عن العواقب ولا يُجرى بين يديها أى تقدير أو حساب!!

* * *

لقــد كان يوم أســلم، العضو الأربعين بين رجــال هذه الجماعة المؤمنة ولا يكاد يمضى على إســلامه لحظات. أجَل لحظات، حتى ينتفض فى قلبه الشــجاع إحساسه بمسئوليته عن الدين كله، وعن هذه الجماعة المســلمة كلها، بل وبمســئوليته عن مســتقبل الدين وأهله عَبْر القرون الآتية والدهور المقبلة..

ومن ثَمَّ يخرج من فوره معلنًا إسلامه على الصورة التى أشرنا إليها من قبل.. وهو آنئذ يدرك تمامًا أنه لا يعلن إسلامه هو.. إسلام «عمر بن الخطاب».. بل يعلن إسلام التسعة والثلاثين الذين سبقوه إلى الإسلام، والذين يعبدون الله خُفية.. - بل يعلن أيضًا إسلام مئات الملايين القادمة عَبر المستقبل!!

ولا تقف مسئوليته عن هذا الدين الذى اعتنقه بإعلان إسلامه، بل تُجاوز ذلك إلى إخراج الإسلام والمسلمين من الخفاء الذى اضطرهم إليه اضطهاد قريش..

وهكذا يذهب إلى رسول الله قائلا:

«والله يا رسول الله لن نعبُد الله سرًّا بعد اليوم»..

وتخرج الدعوة لتواجه خصومها، وتنادى الموعودين بها. وتتلقى قريش من تكبيراتها المدوية أولى الكلمات فى منشورِ نعيها، ونعى أصنامها.

* * *

كانت هذه أولى بركات «عمر»..

وكان هذا نَموذجًا للأسلوب الذى سيتحمل به «عمر» مسئولياته عن دين الله، ودنيا الناس.

إنه أسلوب رجل يرى نفسه تِجاه الأحداث والمواقف، وكأنه المسئول الأوحد عنها.

كل أزمة ستواجه الإسلام والمسلمين، سيجابهها «عمر»، بوصفه المسئول وحده عن مقارعتها وحلها.

وإيمانه بمسئوليته هذه سيدفعه إلى أن يرفض على طول الخط كل دَنِيَّة فى الدين، وكل مُلاينة لأعداء هذا الدين.

وعلى الرغم من إيمانه المطلق برسول الله، فإن مسئوليته ستتحرك فى كل الاتجاهات حتى لو تجعله يبدو - معارضًا - للرسول الذى يقدسه ويفتديه!!

ففى صلح الحديبية يرى «عمر» أن المزايا التى أعطاها الرسول ﷺ لكفار قريش سخية وكثيرة، وهو يؤمن بضرورة مناجزتهم ودخول مكة عليهم طوعًا منهم أو كرهًا لهم، ما داموا لا يريدون أن يَجنحوا للسَّلْم، ويحتكموا إلى الحق..

وما دام الحق والباطل فى معركة، فلابد للحق أن يَستعلِىَ، بدل أن يُهادن.. ولابد له أن يُناجز، بدل أن يُساير..

هكذا فهم «عمر» المسألة، وكوّن الرأى، ولم يكن للجهر به من مَفر..

وهكذا أقبل على رسول الله قبل أن يبدأ الكاتب فى تحرير صحيفة المعاهدة وقال:

- يا رسول الله، ألَسْنَا على الحق، وهم على الباطل؟

قال الرسول: بلَى..

قال عمر: أليس قَتلانا فى الجنة، وقتلاهم فى النار؟

قال الرسول: بلى..

قال عمر: فَعلامَ نُعطَى الدَّنِيَّة فى ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟؟

قال الرسول: ابنَ الخطاب؟.. إنى رسول الله ولن يضيعنى الله أبدًا.

وترنَ عبارة «إنى رسول الله» فى رُوع «عمر» رنين الصدق، ويستنتج من نطق الرسول بها فى هذا المقام، أن الخُطة أكثر وأبعد من أن تكون مجرد رأى عابر لرسول الله، فيسكت..

ويذهب غير بعيد، يدير خواطره على الموقف كله، ويعود إحساسه العارم بالمسئولية فَيغالِبُه، ويُغريه بالمعاودة، فينطلق حثيثًا إلى أبى بكر رضي الله عنه، ويُسِرُّ فى أذنه الحديث:

– يا أبا بكر، ألسنا على الحق، وهم على الباطل؟

– بلى يا عمر!

– فلماذا إذن نعطى الدنية فى ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟!

ويطمئنه أبو بكر إلى أن الله لن يتخلى عن رسوله، وأن فتح الله قريب.

ويهدأ «عمر».. وإن كان هدوؤه هذا لم يمنعه أن يُشيّع «سهيل ابن عمرو» مندوب قريش، بنظرات مضطرمة فاتكة!!..

وعندما مات عبد الله بن أبىّ بن سلول، وكان كبير المنافقين فى المدينة، عارض «عمر» فى إصرار، صلاة رسول الله عليه.

ولنصغ إلى «عمر» نفسه يقص علينا النبأ.

– «لما توفى عبد الله بن أبىّ، دعى رسول الله ﷺ للصلاة عليه، فقام إليه، فلما وقف عليه يريد الصلاة تحولت حتى قمت فى صدره، فقلت يا رسول الله، أعلَى عدو الله تصلى؟.. وأخذت أعدد أيامه الخبيثة ورسول الله ﷺ يبتسم، حتى إذا أكثرتُ عليه، قال؛ أخِّرْعنى يا عمر، إنى خيرت فاخترت، قد قيل لى استغفر لهم، أو لا تستغفر لهم، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم، فلو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له، لزدت.. ثم صلى عليه ومشى مع جنازته وقام على قبره حتى فرغ منه..

«فعجبت لى، ولجرأتى على رسول الله، فو الله ما كان إلا يسيرًا حتى نزلت الآية: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ [سورة التوبة: الآية ٨٤]. فما صلى بعدها رسول الله على منافق، ولا قام على قبره حتى قبضه الله عزو جل»!!

هذا المشهد يكشف عن الطريقة التى كان «عمر» يحمل بها مسئولياته فى شجاعة وصدق.

فركوب مَخاطر الدنيا كلها أهون عليه من أن يقول للرسول: لا.. ولكنه إنسان لا يملك أمام مسئولياته خيارًا، وما دام يرى من واجبه أن يقول: لا.. فليقلها وأمره إلى الله؛ فإذا استمسك الرسول بموقفه، يكون «عمر» قد قال كلمته. وأبرأ ذمته، وليس أمامه بعد هذا سوى سبيل الطاعة والإيمان.

وهو فـــى هذه الواقعة، قدّر أن صلاة الرســـول على منافق ضخم كعبد الله بن سلول، عمل يغرى المنافقين بمزيد من اللؤم والصّلَف، ويُضائل من حرمة الصدق والإخلاص عند كثير أو قليل من الناس.

وإجلاله المسئولية يدعوه لإعلان هذا الرأى، حتى فى مثل هذا الموطن، حيث وقف الرســـول بالفعـــل ليصلى على جثمان الرجل، فيعترضه «عمر». ويقول: أعلَى عدو الله تصلى يا رسول الله؟!

علـــى أنّ تناول «عمر» مســـئولياته، يبـــدو أروع وأبهى ما يكون عندما صار أميرًا للمؤمنين!!

هنا نلتقى بأعظم آيات التفوق الإنسانى..

هنا، نبصر نبوغ النفس، وبطولة الروح. وإعجاز السلوك!!

هنا، نرى مالا عين رأَتْ، ولا أذن سمعتْ، ولا يكاد يخطر بقلب بشَر!

أجل، هنا العظائم تتفوق على نفسها، ويَزْحَمُ بعضها بعضًا هنا «عمر».. رضى الله عن «عمر»!!!

حاكم يحمل مســـئولياته على نَمط فذّ. ويعطى البشر جميعًا إلى آخـــر لحظة فى الأبد، درسًـــا فى الأمانـــة – أىَّ درس، وقدوة فى الذمة – أى قدوة!!

موقفـــه من نفســـه.. موقفه من أهله.. موقفه مـــن الضعيف ومن القوى فى قومه وأمته.. موقفه من وُلاته.. موقفه من أموال الأمة..

مواقفــه هذه، المترَعة بإجلال منقطع النظير لمســئوليته تجاه عمله، وتجاه أمانة الحكم فى كل مجَالى الحكم ومظاهره..

أمــا هــو كحاكم، فقد حرم نفســه لا مــن الطيبات المشــروعة للحاكمين فحســب، بل من الطيبات المشروعة للمواطن العادى فى كل زمان ومكان.

فعَــل ذلك بروح المســئولية التى حبَّبتْ إليــه أن يكون أول من يجوع إذا جاع قومه.. وآخر من يشــبع إذا شــبعوا.. والتى فرضت عليه أن يُعانى كل ما يعانيه الناس من عمل وشظف.

وإنه ﷺ ليصور هذا الضمير القوى فى فلسفة حكيمة فيقول:

– «كيف يعنينى شأن الناس، إذا لم يُصِبنى ما يُصيبهم»!!

وهكــذا رأينا أميــر المؤمنين، يلتــزم أكل الزيت، حين أصاب المســلمين أزمة شديدة فى اللحم والسمن، ويُدمن ابن الخطاب أكل الزيت حتى تئن أمعاؤه وتُقرقِر، فيضع كفه على بطنه، ويقول:

أيها البطن لتمرَنَنَّ على الزيت، ما دام السمن يباع بالأواقى»!!

وفــى عام الرمادة، وكان عام مجاعة قاتلة فى المدينة، أمرَ يومًا بنحر جَزور، وتوزيع لحمه على أهل المدينة..

وقــام المختصون بإنجــاز المهمة، بيــد أنهم اســتبقوا لأمير المؤمنين، أطيب أجزاء الذبيحة..

وعنــد الغداء، وجــد «عمر» أمامــه على المائدة ســنَام الجزور وكبده، وهما أطيب ما فيه!.. فقال:

– من أين هذا؟

قيل: من الجزور الذى ذبح اليوم..

فقال، وهو يزيح المائدة بيده الأمينة:

– بَـخ بَخ، بئس الوالى أنا، إن طعمـتُ طيبها، وتركت للناس كَراديسها – يعنى عظامها – »..

ثم نادى خادمه أسلم، وقال له:

– يا أسلم، ارفع هذه الجَفْنة. وائتنى بخبز وزيت!!

إن قولـه: «بئس الوالـى أنا، إن طعمت طيبها» يرسـم الصورة الكاملة المضيئة لروح المسـئولية التى كانت تسيطر على تصرفات ذلك العاهل المنقطع النظير.

إنه رجل يرى نفسـه واحدًا من الناس آثره الله عليهم بمزيد من التبعـة والواجب حين ولاّه أمرهم، واسـتخلفه عليهم. ولم يُؤْثره بامتياز يجعل الحكم كَلأً مباحًا، وقَنَصًا بَواحًا!!!

على أن «عمر» وهو أمير للمؤمنين، يبذل من الجهد، ما يشـفع له إن هو امْتازَ لنفسه طعمة طيبة تُعينه وتقوّيه...

هذا منطقنا، وهو منطق عادل فى رأينا..

أمـا «عمر»، فصاحب منطق آخر.. وهو يعـرف العدل فى ذُراه العالية التى تتقطع الأنفاس دون بلوغها!!

هو يدرك أن مسـئوليته تقتضيه أن يوفر للناس عيشـهم، فإذا قعـدت بـه دون هذا ظروف لا يملـك لها دفعًا، تكون مسـئوليته

أن يُسـوِّىَ بينهـم بالحـق. وأن يكون هو أول مـن يحمل حظه من الخصَاصة والضنك..

ذات يوم يتلقى من أحد ولاته هدية من الحلوى، ولا تكاد توضع بين يديه حتى يسأل الرسول الذى جاء يحملها:

- ما هذا؟

قـال: حلوى يصنعها أهـل أذربيجان، وقد أرسـلنى بها إليك عتبـة بن فرقد، وكان واليًا على أذربيجان - فذاقها «عمر»، فوجد لها مذاقًا شهيًّا..

فعاد يسأل الرسول:

- أكل المسلمين هناك يطعمون هذا؟

قال الرجل: لا... وإنما هو طعام الخاصة..

فأعاد «عمر» إغلاق الوعاء جيدًا، وقال للرجل:

- أيـن بعيرك؟.. خذ حِملك هـذا، وارجع به لعتبة، وقل له: «عمر» يقول لك. اتق الله، وأشبع المسلمين مما تشبع منه!!

هـذا حاكم لا نلقاه فى مكان الصدارة، ولا فى مقدمة الموكب إلا حين تكون المَخاطـر داهمة.. أما دون هذا، فقد اختار مكانه دوما هناك.. آخر مقعد.. فى آخر صـف.. ليحرس القافلة، وليتأكد إذا كان ثمـت نعمة مقبلـة، أنها لم تبلغه إلا بعـد أن تكون قد مرت بالناس جميعًا!!!

* * *

فإذا جئنا موقفه من أهله وأسـرته، وجدنا تقديسًـا للمسئولية لا يُضاهيه تقديس، وإكبارًا لأمانة الحكم. لا يضاهيه إكبار..

إنه لا يحرمهم مما ليس لهم بحق فحسب، بل مما هو لهم حق مشروع. وإنه لَيحمّلهم من المسئوليات أضعاف ما يَحمله نظراؤهم من الناس؛ حتى صارت قرابة «عمر» عِبئًا يود الأقرباء لو استطاعوا منه الفرار!

إن أميـر المؤمنيـن يعلـم أن أمانة الحكم لا تُمتحـن امتحانها الوثيق إلا هنا.. فى علاقات الحاكم بأهله، هل لهم قانون، وللناس قانون؟ أم إنهم والناسَ سَواسِيَةٌ أمام قانون واحد، وعدالة واحدة؟؟

من أجل هذا بالَغ فى إلزامهم جميعًا مسئولية القدوة.

ولطالما حملهم على شظف العيش، ولأْواءِ الحياة.. لطَالما انتزع من أيديهم، بل من أفواههم اللقمة الطرية!!

ولقد كانت الأرض تَميد، والسـماء تَمُور، حين يعلم أن أحدًا من أسرته ذهب بامتياز – أىّ امتياز!

وكان إذا سَنَّ قانونًا، أو حظَر أمرًا، جمع أهله أوّلاً. وقال لهم:

– «إنى قد نهيت الناس عن كذا، وكذا. وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم، فإن وقَعتم وقعوا. وإن هِبتم هابوا. وإنى والله لا أوتى برجل منكم وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العذاب لمكانه منى.. فمن شاء منكم فليتقدم، ومن شاء فليتأخر»!!

أرأيتم؟؟..

«ضاعفتُ له العذاب لمكانه منى»..

إن القربَــى مــن عمر، لا تعنى أن العدل فــى إجازة.. ولا تعنى أن القانــون لَغو. .بل تعنى أضعافًا مضاعفة من التبعة والمسـئولية والحرمــان.. تعنى البعد من كل شــبهة. والتخلــى عن كل متعة. تعنى أن يتقدم هؤلاء الأقرباء عند الخطر، ويتأخرون عند المغنم، بل هى كذلك تعنى عند «عمر» حرمانهم من حق مكتســب، تفاديًا لشبهة محتملة!!

ولو رأيناه وهو يعاتب ولده «عبد الله بن عمر» لرأينا عجبًا..

مع أن عبد الله ﷺ كان إمامًا فى الورع والزهد والتُّقى...

كان يتبع خطى أبيه، ولم تكن نفسه لتزين له شبهة من سوء؛

ومع هذا، فما كاد «عمر» يراه يســتروح نعمة متواضعة من نعم الحياة الدنيا، إلا قال له:

– «أَلِأنك ابن أمير المؤمنين»؟!

وكانــت هذه العبارة: «أَلِأنك ابن أمير المؤمنين» تمثل الشــعار الحىّ الذى رفعــه «عمر» لأهله خاصة، وللنــاس كافة تجاه الحق والمعدلة.

يدخل يومًا دار ابنه عبد الله. فيجده يأكل شرائح لحم، فيغضب ويقول له:

– «أَلِأنك ابن أمير المؤمنين تأكل لحمًا، والناس فى خَصاصة؟.. أَلاَ خبزًا وملحًا؟. ألا خبزًا وزيتًا»؟!!

ويخرج إلى السوق يومًا فى جولة تفتيشية، فيرى إبلاً سِمانًا، تمتاز عن بقية الإبل بنموها وامتلائها، فيسأل:

– إبلُ مَن هذه؟؟

قالوا: إبل عبد الله بن عمر..

وانتفض أمير المؤمنين؟ كأنما القيامة قامت، وقال:

– عبد الله بن عمر...؟؟ بَخ بَخ يا بن أمير المؤمنين!!

وأرسل فى طلبه من فورهً، وأقبل عبد الله يسعى.. وحين وقف بين يدى والده، أخذ «عمر» يفتل سَبلة شاربه – وتلك كانت عادته إذا أهمَّه أمر خطير – وقال لابنه:

– ما هذه الإبل يا عبد الله؟؟

فأجاب: إنها إبل أنضاء – أى هزيلة – اشتريتها بمالى، وبعثت بها إلى الحِمَى – أى المرعى – أتاجر فيها، وأبتغى ما يبتغى المسلمون..

فعقّب «عمر» فى تَهكّم لاذع:

– ويقول الناس حين يَروْنها.. ارعوا إبلَ ابنِ أمير المؤمنين.. اسقُوا إبلَ ابن أمير المؤمنين.. وهكذا تَسْمَنُ إبلُك، ويَربُو رِبحُك يا ابن أمير المؤمنين»!!

ثم صاح به:

– «يا عبد الله بن عمر، خذ رأس مالك الذى دفعته فى هذه الإبل، واجعل الربح فى بيت مال المسلمين»..

يا خالق هذا الإنسان، سبحانك...!!!

إن «عبد الله بن عمر» لم يأت أمرًا نُكْرًا، إنما يستثمر ماله الحلال فى تجارة حلال، وهو بدينه القوى وأخلاقه الأمينة فوق كل شبهة.

ولكن لأنه ابن أمير المؤمنين، يحرمه أمير المؤمنين، مما هو له حق - مظنة أن تكون بُنّوته لعمر، قد هيأت له من الفرص مالا يتوافر لغيره من الناس!!

هذا حاكم يمسك الميزان فى رهبة لا تماثلها رهبة، وهو لا يدرأ أهله عن أن يكونوا أهل حظوظ ومزايا فحسب.. بل إنه ليضطرهم إلى أن يعيشوا معه فوق صراط أحد من الشفرة.. وأرق من الشعرة، حتى لكأنما رُزِئوا بقرابة «عمر»، بدل أن يهنأوا بها ويتبذخوا فيها!

يصل إلى المدينة يومًا بعض أموال الأقاليم، فتذهب إليه ابنته «حفصة» ﷺ، لتأخذ نصيبها. وتقول له مداعبة:

- «يا أمير المؤمنين، حق أقاربك فى هذا المال، فقد أوصى الله بالأقربين»..

فيجيبها جادًا:

- «يا بُنية، حق أقربائى فى مالى.. أما هذا، فمال المسلمين.. قومى إلى بيتك»!!

هذا رجل تأدب على يد «محمد» رسول الله ﷺ..

ولطالما رآه يقول لأحب الناس إليه، ابنته «فاطمة البتول» «لا يا فاطمة.. إن فى المسلمين من هم أحوج منك لهذا المال»..

ثم يحرمها ويعطى سواها!!

مِن هذا المنهل ارتوى «عمر»، وعلى هذا الهدى سار..

وهو يطالب أهله وذويه أن يرتفعوا دومًا إلى مستوى المسئولية لا الحظوة. فليس لدى «عمر» حُظوة لإنسان..

هو يريد منهم أن يكونوا عونًا له على واجبه، وذلك يقتضيهم أن يبذلوا جهدًا أكثر، ويحرزوا تفوقًا أكبر.

يقتضيهم أن يعطوا كثيرًا، ويأخذوا قليلا، وينتظروا من الله حُسن الثواب..

أجل.. يقتضيهم أن يكونوا قدوة لأهل العفاف والكفاف.

حين أفاء الله على المسلمين فى عهده خيرًا كثيرًا، وامتلأ بيت المال بالمال، أشار عليه نفر من صحبه، أن يقوم بإحصاء الناس، ورَصْد أسمائهم فى ديوان، حتى ينالوا جميعًا رواتبهم السنوية فى نظام محكم.

واختير لهذه المهمة – عقيل بن أبى طالب، وجبير بن مطعم، ومخرمة بن نوفل – وكانوا أعلم الناس بأنساب قريش، وأكثرهم معرفة بالمسلمين.

جلسوا يدونون الأسماء، بادئين ببنى هاشم، ثم بآل أبى بكر ثم بنى عَدِىّ آل عمر...

فلما طالَع أمير المؤمنين الكتاب رده إليهم وأمرهم أن يقدموا على آل عمر كثيرين غيرهم اقترح أسماءَهم، وذكر عائلاتهم.. وقال: «ضعوا عمر وقومه موضعهم»!!

وعلم «بنو عدى» بهذا، فذهبوا إليه راجين أن تظل أسماؤهم فى مقدمة الديوان كى ينالوا أنصباءهم والمال وَفْر، وقالوا له: ألَسْنا أهل أمير المؤمنين؟

فأجابهم عمر:

- «بَخ بَخ بنى عدى، أردتم الأكل على ظهرى، وأن أهَبَ حسناتى لكم، لا وَاللهِ لتأخذُنَّ مكانكم ولو جئتم آخر الناس»..

إن القرابة من أمير المؤمنين، لا تعنى كما أسلفنا الأثرة والحظوة إنما تعنى العرق والشظف..

ولقد رفض أمير المؤمنين إلحاح أصحابه وإخوانه لكى يُولى ابنه عبد الله منصبًا من مناصب الدولة..

ولقد كانوا فى إلحاحهم مدفوعين بحرصهم الشديد على الانتفاع بمواهبه النادرة.

ولكن «عمر» رفض كما رفض عند موته أن يرشحه للخلافة..

بل رفض أن يجعله ضمن الستة الذين رشحهم هو ليختاروا من بينهم خليفة قائلا: «حَسْبُ آل عمر أن يحاسب منهم واحد، هو عمر»!!

لكــنْ يا أميــر المؤمنين، إن ولــدك عبد الله هــو التقى العادل، فهــل ذنبه، وذنب الناس الذين ستســعدهم ولايتــه أنه ابن أمير المؤمنين؟!

طالمــا قيل هذا القول لعمــر.. فيذكّر قائليه بــأن عبد الله ليس هو التقى العادل وحده.. وهناك فى المســلمين نُظَراء له فى العدل والتقوى، فإذا آثره «عمر» عليهم يكون قد حابَى وجامَل!..

ثــم إن «عمر» رجل «قــدوة»، قبل أن يكون رجــل «حكم»؛ فإذا اســتعمل اليوم صالحى أهله. فأيّان يذهــب إذا جاء من بعده حكام يُسرفون فى تولية أهليهم. ويقولون: لقد فعل هذا «عمر»؟!

من أجل ذلك وضع مبدأ جليلا فقال:

– «من اســتعمل رجلا لمودة أو قرابة، لا يحمله على استعماله إلا ذلك. فقد خان الله ورسوله والمؤمنين».

إنــه إذا ولى عبد الله ابنــه عملا، لن يفعل، لمكان عبد الله منه؛ لا لمحض استحقاقه وكفايته. ومع هذا يصر على موقفه..

جلس يومًا بين أصحابه وقال:

– «أعيانــى أهل الكوفة.. إن اســتعملت عليهم لَينًا اســتضعفوه وإن وليتهم القوى شــكَوْه، ولَودِدْتُ أنى وجدت قويًّا أمينًا مســلمًا، أستعمله عليهم».

فقال أحد جلسائه : أنا والله أدلك علي القوى الأمين المسلم..

قال عمر متحفزًا: من هو..؟

قال الرجل: عبد الله بن عمر.

فأجاب أمير المؤمنين قائلا: قاتلك الله. والله ما أردتَ الله بهذا... ثم اختار واليًا آخر!!

* * *

لقد اعتدنا أن نضع هذا السلوك المعجز لعمر تحت عنوان الزهد أو التقشف...

فعمر يجوع ويتقشف فى مطعمه، وملبسه، ويحمل أهله معه على ذلك بدافع، نُسميه زهدًا..

ولكن الحق أن وراء الزهد، حافزًا أبعد غورًا وأعمق جذورًا.

ذلك هو الاحترام الفريد لمسئوليته، والتفانى الفذّ فى الإخلاص لتبعاته وواجبه.

إن للمسئولية فى ضميره الطاهر الحىّ قَداسةً مطلقة، وجميع الاعتبارات والمواقف، تتكيف وَفق مقتضيات هذه المسئولية، ولا تخضع هى لأى موقف أو اعتبار.

ولعلَّ من حظوظنا الوافية أن نطالع هذه الخطبة القيمة التى استهلَّ بها عهد خلافته:

- «.. بلغنى أن الناس هابوا شدتى، وخافوا غِلظتى، وقالوا: قد كان عمر يشتد ورسول الله بين أظهرنا، ثم اشتد علينا، وأبو بكر وَاليَنَا دُونه، فكيف وقد صارت الأمور إليه؟...

«ألا مـن قـال هذا فقـد صدق، فإنـى كنت مع رسـول الله عونَه وخادمَـه.. وكان ﷺ مـن لا يبلغ أحـد صفته من اللين والرحمة، وكان كمـا قـال الله تعالـى ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [سـورة التوبة: الآية ١٢٨]. فكنت بين يديه سـيفًا مسلولا حتى يُغمدنى، أو يَدعنى فأمضى.. فلم أزل مع رسول الله ﷺ على ذلك حتى توفاه الله وهو عنى راض. والحمد لله على ذلك كثيرًا. وأنا به أسعد..

«ثـم وَلىَ أمرَ المسـلمين أبو بكر، فكان مـن لا تنكرون دَعَته، وكرمه، ولينـه، فكنت خادمه وعونه. أخلط شـدتى بلينه فأكون سـيفًا مسلولا حتى يغمدنى فأمضى. فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عـز وجل وهو عنى راض، والحمد لله علـى ذلك كثيرًا. وأنا به أسعد..

«ثـم إنى قد وليـت أموركم أيها الناس، فاعلموا أن تلك الشـدة قد أُضعِفَتْ، ولكنهـا إنما تكون على أهل الظلم والتعدى، فأما أهل السلامة والدين والقصد فأنا ألينُ لهم من بعضهم لبعض. ولستُ أدع أحدًا يظلم أحدًا. أو يعتدى عليه حتى أضع خده على الأرض، حتى يُذعن للحق، وإنى بعد شـدتى تلـك، أضع خدى على الأرض لأهل العفاف، وأهل الكفاف..

«ولَكم على أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذونى بها:

لَكُم علىّ ألا أجتبى شـيئًا من خراجكم وما أفاء الله عليكم إلا من وجهـه، ولكم علىّ إذا وقع فـى يدى، ألا يخرج منى إلا فى حقه،

ولكـم علىَّ أن أزيـد عطاياكم وأرزاقكم إن شـاء الله تعالى، وأسـد ثغوركم، ولكم علـىَّ ألا ألقيَكم فى المهالك، وإذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا إليهم...

«فاتقوا الله وأعينونى على أنفسـكم بكفّها عنى، وأعينونى على نفسـى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإحضارى النصيحة فيما ولانى الله من أمركم»!!

* * *

هذه الخطبة، ليست أجمع خطب «عمر»، ولا أكثرها ألَقًا ونورًا ولكنهـا فى هذا المقام تلقى ضياء غامـرًا على الحافز العميق الذى كان يحرك الرجل الكبير ويَهدى خطاه..

فلقد كان ورسـولُ الله حىّ، سـيفًا مسـلولا على كل ما هو زيف وباطل، يضرب به الرسول ما يشاء..

وكان وأبو بكر حى، السـيف المسـلول نفسَـه فـى يد خليفة رسـول الله.. أى إنـه كان جنديًّـا، قد يناقش قائـده، ولكنه آخر الأمر السـميع المطيع..أما اليوم، فقد صار السيفَ والضاربَ معًا.. الجنـدى، والقائد جميعًا.. ومسـئوليته عن كل شـىء مسـئولية مباشرة..

وهو لا يعد نفسه مسئولا أمام الناس، ولا أمام التاريخ، ولا أمام شـىء من هذه المصطلحات. بل هو مسئول أمام الحق المبين – الله الذى لا تخفى عليه خافية!!

أجـل، أمام الله العلى الكبير يحمل «عمر» المسـئولية التى كان يحملها صاحباه – رسول الله، وخليفته أبو بكر..

* * *

وإذا كنـا رأينا كيف تفوَّق بمسـئولياته على كل خوالج النفس، ورغبات الأهل..

فلننظر الآن كيف باشَر مسـئوليته تجاه الناس الذين استخلفه الله عليهم.

وهنا نلتقى مثلما التقينا من قبل، وكما سنلتقى من بعد بالرجل الذى هو نسيجُ وحدِه..

إنه يرى مسـئوليته مباشِـرة عن كل رجل فى سِـرْبه.. عن كل امرأة فى بيتها.. عن كل رضيع فى مهده!!

وهو يبدأ مسئوليته تجاه الناس، بأن يعيش فى أدنى مستويات عيشهم. فإذا دُسَّت عليه لقمة متميزة قال كما قرأنا من قبل: «بئس الوالى إن أنا طعمت طيبها، وتركت للناس عظامها»!

وأعجبُ من كل عجب، أنه لم يسـلك سـلوكه هذا تجاه الأحياء وحدهم، بل تجاه الأموات أيضًا!!

فكان يرفض أن يظفر بنعيم لم يظفر به إخوانه الذين سبقوه إلى الله، واستشهدوا فى سبيله قبل أن يمكّن للإسلام والمسلمين..

حين زار الشـام، جيء له بطعام طيب، مختلف ألوانه، وبدلا من أن يقبل عليه، وينعم بمذاقه، رمَقه بعينين باكيتين وقال:

– «كُلُّ هـذا لنا، وقـد مات إخواننا فقراء لا يشـبعون من خبز الشعير»؟؟!!

وهو يأخذِ بِمَكاظِم الجبارين العتاة حتى يخضعوا للحق. ويُوَطِّئوا الأكناف لإخوانهم الذين يتميزون عليهم.

وفـي الوقت نفسـه يضع خده هـو على الأرض – كما سـمعناه يخطب من قبل – لأهل العفاف وأهل الكفاف..

وهو يحمل مسـئولياته فوق كاهله..، ولا يوزعها على الآخرين الذين هم بمسئولياتهم مشغولون..

فإذا تقدم منه أحد أصحابه ليريحه من عمل، أو يشـاركه فيه، نَهرَه قائلا: «أتحمل وزرى يوم القيامة»؟!

وحين نبصر الجوَّ النفسـي المشحون بالاهتمام والحركة عندما تنادى «عمر» إحدى مسئولياته، نرى عالمًا يموج ويتحرك، وليس فردًا مجرد فرد..

والحـدَث العابر الذى لا يكاد يحسـه أكثر الناس يقظة وتحفزًا وإنسـانية.. كان «عمر» يرتجف منه، ويحتشـد له، ويقيس عليه الأشباه والنظائر ثم يضع تشريعًا، ويسن قانونًا..

قـدم المدينة بعض التجار فى إحدى الأمْسـيات، وخَيَّموا عند مشـارفها، فاصطحب أمير المؤمنين عبد الرحمن بن عوف ليتفقد

أمر القافلة، وكان الليل قد تصـرَّم، واقترب الهزيع الأخير منه.. وعنـد القافلـة النائمة اتخذ «عمـر» وصاحبه مجلسًـا على مقربة منهـا، وقال «عمر» لعبد الرحمن: فلنمض بقية الليل هنا، نحرس ضيوفنا..

وإذْ هما جالسان، سمع صوت بكاء صبى، فانتبه «عمر» وصمت.. وانتظر أن يكفّ الصبى عن بكائه، ولكنه تمادى فيه، فمضى يسرع صوبه، وحين اقترب منه وسـمع أمه تُنَهْنِهُه، قال لها: اتق الله، وأحسنى إلى صبيك!!

ثم عاد إلى مكانه.. وبعد حين عاود الصبى البكاء فهرول نحوه «عمر»، ونادى أمه: قلت لك، اتقِ الله أحسنى إلى صَبيّك..

وعاد إلى مجلسه. بيد أنه لم يكد يستقر حتى زلزلَه مرة أخرى بكاء الصبى فذهب إلى أمه وقال لها: ويحك.. إنى لأَراك أُمَّ سـوء. ما لِصَبيك لا يقر له قرار؟!

قالت، وهى لا تعرف من تخاطب: يا عبد الله قد أَضجرتنى.. إنى أحمله على الفِطام فيأبى..

سألها عمر: ولم تحملينه على الفطام؟

قالت: لأن عمر لا يفرض إلا للفطيم..

قال وأنفاسه تتَواثب: وكم له من العمر؟

قالت: بضعة أشهر..

قال: ويحك.. لا تُعجِليه..

يقول صاحبه عبد الرحمن بـن عوف: فصلّى بنا الفجر يومئذ، وما يَستبين الناس قراءته من غَلبة البكاء. فلما سلّم قال: «يا بؤسًا لعمر!! كم قتل من أولاد المسلمين؟!!»

ثـم أمر مناديًـا ينادى فـى المدينة: «لا تعجلـوا صبيانكم عن الفطام، فإنا نفرض من بيت المال لكل مولود فى الإسلام»..

ثم كتب بهذا إلى جميع ولاته فى الأمصار.

* * *

أمير للمؤمنين، تدك جيوشه معاقل كسرى وقيصر. وهو هنا فى السـاعات الأخيرة من الليل يحرس قافلة وفدت على المدينة.. ثم يؤرقه بكاء طفل ويزلزله، حتى يَشْرَق بالدموع وهو يصلى بالناس، ثـم لا يعالج واقعة الحال هذه وحدها، بـل يضع فى التّو واللحظة قانونًا يستوعب كل حالاتها المشابهة..

اهتمام عجيب بمشـاكل الناس، وممارسة فذة خارقة لمسئولية الحكم!

وفى عام الرمادة يسـمع عن جماعـة فى أقصى المدينة، قد نزل بهم من الضر أكثر مما نزل بأهل المدينة كلها.. فيحمل فوق ظهره جرابين من دقيق، ويحمل خادمه «أسـلم» قربـة مملوءة زيتًا، ثم يهرولان إلى هناك يحملان النجدة والغوث.

وعندما يبلغان القوم، يطرح أمير المؤمنين بردائه ويطهو بنفسه طعامهم حتى يشبعوا.. ثم يرسل خادمه ليعود إليه بإبل يحملهم على ظهورها إلى داخل المدينة حتى يكونوا بقرب منه، وحتى ينزلوا مكانًا أطيب، وينالوا مكانًا أطيب، وينالوا رعاية أكثر..

الناس.. الناس.. الناس!!!

هذه الكلمة كانت الهتاف العلوى الذى يجلجل فى روع عمر آناء الليل وأطراف النهار.

حتى لنَراه وهو يجود بأنفاسه الطاهرة، وجِراحُه النبيلة الشهيدة تَنْشَخِبُ دمًا، لا يشغله إلا أمر الناس..

فيدعو بالستة الذين اختارهم، ليختاروا من بينهم الخليفة الجديد وإذ يحضر منهم على، وعثمان، وسعد، يوصيهم وهو لا يقوَى على الكلام فيقول:

– «يا على.. إذا وليت من أمور الناس شيئًا، فأعيذك بالله أن تحمل بنى هاشم على رقاب الناس!».

– «يا عثمان.. إذا وليت من أمور الناس شيئًا، فأعيذك بالله أن تحمل بنى أبى مُعَيط على رقاب الناس!».

– «يا سعد.. إذا وليت من أمور الناس شيئًا، فأعيذك بالله أن تحمل أقاربك على رقاب الناس!».

وفى العام الذى لقى الله فيه، كان على موعد مع نفسه أن يطوف بجميع الأمصار ليتفقد أحوال الناس ويبلوَ أخبارهم. ولقد قال يومًا لأصحابه:

«لئن عشت إن شاء الله، لأَسيرنّ فى الرعية حوْلا، فإنى أعلم أن للناس حوائج تقطع دونى.. أمّا وُلاتهم فلا يرفعونها إلىّ. وأمّا هم فلا يصلون إلىّ.. أسير إلى الشام فأقيم شهرين، وبالجزيرة شهرين، وبمصر شهرين، وبالبحرين شهرين، وبالكوفة شهرين، وبالبصرة شهرين.. واللهِ لَنعم الحول هذا!!»

***

وتنقلنا مسئولية «عمر» عن الناس إلى مسئوليته عن الولاة والعمال الذين كان يَكِل إليهم مصاير الناس فى البلاد البعيدة والقريبة..

فكيف كان «عمر» يباشر مسئوليته تجاه وُلاته ومعاونيه فى الحكم؟؟

كان يباشرها على طريقته.. طريقته التى لا تتغير، والتى لا نرى فى نماذجها مهما تتكاثر أدنى تفاوت..

وكان يختارهم فى حرص من يختار مصيره!!..

إنه يعد نفسه مسئولا عن كل غلطة يرتكبها أحد ولاته، علم بها عمر أم لم يعلم..

ومن ثـم، فهو يقلب وجهـه، ويُعمل فكره، ويَسـتخير ربه، ويَستشـير صحبـه، ويَسـتأنى ثم يسـتأنى قبل أن يختـار عامله ومعاونه!!

كان يقول لأصحابه:

– «أرايتم إذا اسـتعملت عليكم خير من أعلم، ثم أمرته بالعدل أيبرئ ذلك ذمتى؟؟»

يقول أصحابه: نعم..

فيقول: «كلا. حتى أنظر فى عمله، أعَمِل بما أمرته أم لا؟».

ويقول: «أيما عامل لى ظلم أحدًا، وبلغتنى مظلمته فلم أغيرها. فأنا ظلمته!!»

ويقول لخالد بن عرفطة:

– «وإن نصيحتـى لك وأنت عندى جالـس، كنصيحتى لمن هو بأقصى ثغر من ثغور المسلمين، وذلك لِمَا طَوَّقنى الله من أمرهم، فإن رسول الله ﷺ قال: «من مات غاشًّا لرعيته لم يُرَحْ رائحة الجنة»!!

إن «عمر» يريد من ولاته أن يباشـروا مسئولياتهم على المستوى نفسه الذى يباشر فيه مسئولياته..

وإذا كان ذلك عسـيرًا.. بل مستحيلا، لأن «عمر» لا يتكرر، فقد كان يبحث عن أقرب الناس مسافة من هذا المستوى..

وهو لهذا، يختارهم مُمعنًا فى التحوط والدقة واليقظة..

فهو – أولا – يرفض كل من يسعى إلى المنصب أو يطلبه لنفسه.

وإنه فى هذا لَمقتدٍ برسول الله ﷺ؛ إذ كان يقول: «إنا والله لا نُوِّلى هذا الأمر أحدًا يسأله أو يحرص عليه».

هذه أولى خطوات «عمر» فى اختيار معاونيه.. استبعاد كل راغب فى المنصب، طامح إليه، لأن الذى يحمل شهوة الحكم يحمل شهوة التحكُّم.. والذين يطلبون أن يكونوا حكامًا وولاة، لا يقدرون مسئولية الحكم تمامًا، وإلا لهربوا منه، وزهدوا فيه..

ذات يوم أسرَّ فى نفسه اختيار أحد أصحابه ليجعله واليًا على أحد الأقاليم.

ولو صبر هذا الصحابى بضع ساعات، لاستدعاه «عمر» ليقلده المنصب الذى رشحه له.

ولكن أخانا بادَرَ الأمور التى لم يكن يعرف عنها شيئًا، وذهب إلى أمير المؤمنين يسأله أن يوليه إمارة..

ويبتسم «عمر» لحكمة المقادير، ويفكر قليلا ثم يقول لصاحبه:

– «قد كنا أردناك لذلك، ولكن من يطلب هذا الأمر لا يُعان عليه ولا يُجاب إليه».. ثم صرفه وولى غيره!!

سنقول لأنفسنا: وأى بأس فى أن يطلب رجل لنفسه الحق فى عمل يثق من قدرته على مسئوليته، وحفظ أمانته؟؟

ألم يقل يوسف الصديق للملك: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥﴾ [سورة يوسف: الآية ٥٥].

أجل، قال يوسف الصديق هذا، بيد أنه حين تقدم طالبًا ذلك المنصب، كان تمامًا كفدائى يخاطر بحياته.. كان كجندى الإطفاء يُلقى بنفسه فى أفواه اللهب، وهو لا يدرى: أيعود مُعافىً، أم يتحول هناك إلى رماد؟!

صحيح أنه طالب بمنصب رفيع، بيد أن هذا المنصب ساعتئذ كان غُرمًا لا غنمًا، وكانت مخاطره المحققة، تفوق كثيرًا مباهجه المحتملة..

كان هناك إفلاس، ومجاعة، وخراب، وكل المسئولين يهربون مما جنَتْ أيديهم، ثم يتقدم رجل لينقذ أزمة تستعصى على الإنقاذ.

هذا ليس طالب منصب، بل عاشق الخطر، وراكب الصعب!!

علىَ أن «عمر»، لم يكن بحاجة إلى أن يفلسف المسألة على هذا النسق.. فالأمر لديه فى غاية الوضوح.. إنه يريد واليًا يرتفع إلى مستوى المسئولية كما يفهمها عمر. وأى واحد من هذا الطراز، سيهرب من الولاية بدل أن يحرص عليها أو يطلبها.

لقد هرب «عمر» مما هو أكثر من الولاية.. هرب من الخلافة إثر وفاة رسول الله.. ولولا أن طوَّقه بها «أبو بكر» فى لحظة لا تسمح بالتردد، بل ولا بالتفكير، لهرب منها أيضًا ولآثر كما قال: «أن يُضرب عنقه ولا يرى نفسه أميرًا للمؤمنين!!».

إن كل من يطلب الإمارة إذن، يكون سئ التقدير لتبعاتها، وعُقْباها، ومن ثم لا يراه «عمر» جديرًا بها.

هذا أول ما يتطلبه من ولاته. الزهد فى المنصب، والفرار منه، حتى إذا جاءهم كَرها، أخذوه مشفقين!!

بعد هذا، يختار لها «القوىَّ الأمين»..

ولا يكاد يختار الوالى حتى يأخذ بيده ويقول له:

– «إنى لم أستعملك على دماء المسلمين، ولا على أعراضهم. ولكنى استعملتك لتقيم فيهم الصلاة، وتَقسِم بينهم، وتحكم فيهم بالعدل».

ثم يعدّ له عدًّا، النواهى التى عليه أن يتجنبها:

- لا تركب دابة مُطَهّمة..
- لا تلبس ثوبًا رقيقًا..
- لا تأكل طعامًا رافهًا..
- لا تغلق بابك دون حوائج الناس...

ولكن، لماذا يحول «عمر» بين عماله، وهذه الطيبات المباحة – الدابة المطهمة.. والثوب الرقيق.. واللقمة الطرية؟!..

إنه يفعل ليعيشوا دائمًا فى مستوى الشعب الكادح الفقير.. وليظلُّوا فى مكانهم الحق، خدامًا للناس، لا سادة لهم..

إنه لا يريد لِوُلاَتِه أن يُفتَنوا، أو يترفوا، أو ينالوا باسم الحكم أى بُلَهْنِيَةٍ، أو امتياز.

من أجل هذا، يتعقبهم فى كل مظاهر الزينة، والعلو، فيذودهم عنها حتى لو يكون هذا المظهر دابة الركوب.

يجب أن تكون هذه الدابة للعمل، لا للخيَلاء.. للخدمة لا للزَّهْو.. للضرورة، لا للصلَف ولا للترف!!

إنه لا يريد لولاته أن يفقدوا وَجاهتهم.. ولكنه يريد لهم الوجاهة المشروعة التى لا بَغى فيها ولا غرور..

يريد أن يتفوقوا على الناس بأناقة النفس، لا بأناقة اللباس، وبمحامد الأفعال، لا بالمظاهر الكاذبة، والغبار الباطل!!!

انظروا كيف يرسم فى حِذق باهر، صورة الأمير الذى يُحب، والحاكم الذى يُؤْثر..

ذات يوم قال لإخوانه:.. «دُلونى على رجل أَكِلُ إليه أمرًا يهمنى.. قالوا: فلان. قال: لا حاجة لنا فيه.. قالوا: فمن تريد؟

قال: «أريد رجلا إذا كان فى القوم وليس أميرًا لهم، بدا، وكَأَنَّهُ أميرهم.. وإذا كان فيهم وهو أميرهم. بدا، وكأنه واحد منهم!!»

يا لَبهاءِ عقلك، وذكاء روحك!!

انظروا..

هذا ما يريده «عمر» تمامًا - أُمراءُ فى أخلاقهم وتواضعهم. وليس فى تبذخهم وعلّوهم..

أمراء، لا يفسح الناس لهم الطريق، ولا يتَخطَّوْن الرقاب. بل يمشون على الأرض هَوْنًا، ويعيشون قانعين..

أمراء، يشـاركون الناس ولا يتميزون عليهم بغير العمل الصالح والجهد المبذول..

ولقد تعلَّم هذا من خير المعلمين، من رسول الله محمد ﷺ.

فما كان الرسـول يرى أصحابه فى عمل إلا شاركَهم، آخذًا أكثر جوانب العمل مشقة.

يجمع يومًا الحطب لأصحابه وهم سَفْر، فإذا قالوا: نحن نكفيك ذلك يا رسول الله، قال لهم: «إنى أكره أن أتميَّز عليكم»..

ويسـمع بعض أصحابه يقولون له: «أنت سـيدنا، وابن سيدنا، فينهاهم قائلا: «لا يَستغوِينكم الشيطان»..

ويَقدُم على أصحابه، فيقفون له، فينهاهم قائلا: «لا تقوموا كما يقوم الأعاجم، يعظم بعضهم بعضًا!!».

* * *

ولا تقف مسئولية «عمر» عن ولاته عند حسن اختيارهم، وحسن توجيههم. بل تنهض إلى إقامـة كل الضمانات التى تجعل ولايتهم على الناس رحمة، ورخاء، وأمنا..

وسـبيلُه لهـذا، أن يجعل الحاكم تحت رقابـة المحكوم.. وأن يحقق بنفسـه وعلى الفور كل شكوى يشكوها مواطن من حاكم، وأن يتتبع فى يقظة عارمة سلوك ولاته فى كل الأمصار!!

فـى موسـم الحج، وعلـى ملأ من الأعـداد الهائلـة من حجاج المسـلمين القادمين من كل بلد، جمع عماله وولاته جميعًا، ووقف خطيبًا:

– «أيهـا الناس، إنـى والله لا أبعـث عمالى إليكـم، ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أبعثهم إليكم ليعلموكم دينكم وسـنة نبيكم، فمن فُعل به سوى ذلك، فليرفعه إلىَّ. فوالذى نفسى بيده لأمكننه من القصاص!!».

ويقـف «عمرو بن العاص»، الذى رأى فى هذا الحضِّ خطرًا على هيبة الولاة والحاكمين. فيقول: «أرأيتَ إن كان رجل من المسلمين واليًا على رعية فأدّب بعضهم، أتقتصُّ منه؟؟».

ويجيـب عمـر: «إى والذى نفسـى بيـده لأفعلـنّ، فقد رأيت رسول الله ﷺ يُقِصُّ من نفسه، ويقول:

«من كنت جلدت له ظهرًا فهذا ظهرى فليقتدْ منه!!».

و«عمـر» يعنى دائمًا ما يقول، فما كانت تبلغه شـبهة عن وال حتى يتوافر عليها فى يقظة وحزم.

يسـأل وفـدًا زاره من أهل حمص عن واليهم «عبـد الله بن قُرط» فيقولون: خير أمير يا أمير المؤمنين، لولا أنه قد بنى لنفسـه دارًا فارهة..

ويُهمهِم عمر: دارًا فارهة؟.. يتشـامَخُ بها على الناس؟ بَخٍ بَخٍ لابن قرط..

ثم يوفد إليه رسولا، ويقول له: ابدأ بالدار فأَحرِق بابها... ثم ائت به إليّ.

ويسافر الرسول إلى حمص، ويعود بواليها فيمتنع عمر عن لقائه ثلاثة أيام. ثم فى اليوم الرابع يستقبله ويختار للقائه مكان «الحرَّة» حيث تعيش إبل الصدقة وأغنامها..

ولا يكاد الرجل يقبل، حتى يأمره «عمر» أن يخلع حلته، ويلبس مكانها لباس الرعاة ويقول له: «هذا خير مما كان يلبس أبوك».. ثم يناوله عصًا، ويقول له: «وهذه خير من العصا التى كان أبوك يَهُشُّ بها على غنمه».. ثم يشير بيده إلى الإبل ويقول له: «اتبعها وارْعَها يا عبد الله»!.! ثم بعد حين، يستدعيه، ويقول له معاتبًا:

– هل أرسلتك لتشيد وتبنى؟!.. ارجع إلى عملك ولا تعد لما فعلت أبدًا!!

هذا موقفه من رجل شهد له قومه بأنه خير أمير لولا أن ميَّز نفسه بدار رافهة!!..

ألا ترون أننا أمام أسطورة.. بل لو كانت أسطورة لصعب تصديقها.. ولكن لحسن حظ البشرية كلها أن «عمر» لم يكن أسطورة؛ بل كان حقيقة ملأت الزمان والمكان.. وكان هدى من الله للناس يقول لهم: هكذا حاولوا أن تكونوا..

* * *

وفـى الوقـت الذى تجمـع الفـرس وحلفاؤهم، فـى نهاوند.. وسعد بن أبى وقاص يتهيأ لمنازلة جيوشهم اللجبة، تصل المدينة شكوى ضد سعد، فيسـتدعيه «عمر» فورًا، غير منتظر قليلا ريثما تنتهى المعركة الموشكة على البدء والاندلاع.. ذلك لأن «عمر» يرى أنه إذا كانت الشكوى صحيحة وصادقة، فلن يُبقى على سعد. حتى لو خسر المسلمون المعركة كلها.. لأن النصر كما يقول «عمر». إنما يبطئ عن كل قائد أو جيش يجترح السيئات!!

وهكـذا، وفـى هـذا الظـرف الدقيق الحـرج، يرسـل «عمر» «محمد ابن مسـلمة» إلى هناك ليفحص الشـكوى فإن وجدها حقًّا، عاد بسعد إلى المدينة..

ويذهـب «محمد بن مسـلمة» ويأخذ بيد سـعد الفاتح الأعظم، والوالـى المهيـب، ويطوف به على الناس يسـألهم الـرأى فيه.. فقوم يقولون عنه خيـرًا... وآخرون يُحصون عليه بعض مآخذهم.. وأخيرًا، يصطحبه ابن مَسلمة إلى المدينة.

وإنـا لنعرف نبأه مع حاكم مصـر وفاتحها، «عمرو بن العاص» حين وفد عليه من مصر، فتىً مكروب يقول: يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك..

ويسـتوضحه النبأ فيعلم منه أن «محمد بن عمرو بن العاص» قد أوجعه ضربًا، لأنه سـابَقَه فسبَقه، فعلا ظهره بالسوط وهو يقول: خذها، وأنا ابن الأكرمين!!

ويُرسِل أمير المؤمنين يدعو عمرو بن العاص وابنه محمدًا ولندع «أنس بن مالك» يروى لنا النبأ كما شهده ورآه:

يقـول: «.. فو الله إنّا لجَلوسٌ عند عمـر، وإذا عمرو بن العاص يقبل فى إزار ورداء، فجعل عمر يتلفت باحثًا عن ابنه محمد، فإذا هو خلف أبيه..

فقال: أين المصرى؟..

قال: ها أنذا يا أمير المؤمنين..

قال عمر: خذ الدرّة، واضرب بها ابن الأكرمين..

«فضربـه حتى أَثْخنَـه ونحن نشـتهى أن يضربه، فلـم يَنْزِع حتى أجببنا أن ينزع مـن كثرة ما ضربه، وعمر يقول: اضرب ابن الأكرمين!!

ثم قال عمر للمصرى: «أَجِلْهَا على صَلْعة عمرو؛ فو الله ما ضرَبك إلا بفضل سلطانه!!!

قـال الرجل: يـا أمير المؤمنين، قد اسـتوفيت، واشـتفيت، وضربت من ضربنى..

قال عمـر: أماَ والله لو ضربتَه ما حُلنـا بينك وبينه حتى تكون أنت الذى تدعه..

ثـم التفت إلى عمرو وقال: «يا عمرو، متـى تَعبَّدتُم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟!!».

والتفت إلى المصرى وقال له: «انصرف راشدًا، فإن رابك ريب فاكتب إلىّ!!».

هذا هو عمرو بن العاص، صحابى من شيوخ الصحابة، وحاكمُ إقليم من أكبر أقاليم الفتح الإسلامى، ولا ينجو ولده من العقوبة، بل وتكاد العقوبة تدرك عمرو بن العاص نفسه لولا عفو صاحب الحق!

* * *

على أن هذه المواقف الصارمة الحازمة التى يقفها «عمر» من ولاته الذين قد يسيئون استعمال سلطانهم.. هذه المواقف تتحول إلى مشاهدَ أخرى يذوب فيها «عمر» «» حَنانًا وغبطة حين يحقق مع أحد الولاة، فينتهى بريئًا..

ذات يوم تلقى شكَاةً ضد وال له، هو «سعيد بن عامر الجُمَحِىّ» تتضمن ثلاثة مآخذ:

أولها: أنه لا يخرج إلى الناس حتى يتعالى النهار..

ثانيها: أنه لا يجيب أحدًا بليل..

ثالثها: يغيب عن الناس كل شهر يومًا، فلا يرى أحدًا ولا يراه أحد..

واستدعاه «عمر»، وواجهه بالشَّاكِين، وقال لهم تكلموا:

قالوا: لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار..

ونظر أمير المؤمنين صَوْب سعيد وسأله أن يجيب..

فقال: والله يا أمير المؤمنين. إنْ كنتُ لأكرهُ ذِكر السبب. ليس لأهلي خادم، فأنا أعجن معهم عجيني، ثم أجلس حتى يختمر، ثم أخبز خبزى، ثم أتوضأ وأخرج إليهم..

وأشرقت أسارير «عمر»، فقد بدَا أنه لن يُساء فى رجل وثق فى دينه، واختاره بنفسه..

ثم قال للشاكين: وماذا أيضًا؟..

قالوا: لا يجيب أحدًا بليل.

قال سعيد: والله، إن كنت لأكره ذِكره، إنى جعلت النهار لهم، وجعلت الليل لله عز وجل..

قال عمر: وماذا أيضًا تشكون منه؟

قالوا: إن له فى الشهر يومًا لا يقابل فيه أحدًا..

وقال سعيد: ليس لى خادم يغسل ثيابى، ففى هذا اليوم أغسلها، وأنتظرها حتى تجف، ثم أخرج إليهم آخر النهار..

قال عمر وقد غمره الحبور والبشر: الحمد لله الذى لم يُخيب فِراستى!!..

إن سعادته تكون غامرة، حين تَخيب شكوى، وتَظهر براءة لأنه يريد أن يرى ولاته كلهم، بل والناس جميعًا متفوقين على الضعف، مُبَرَّأين من العيب..

أرسل «عمير بن سعد» واليًا على حمص، فمكث هناك عامًا لا يرسل خَراجَها. ولا تصل منه أية أنباء، فقال «عمر» لكاتبه:

– «اكتب إلى عمير، فإنى أخاف أن يكون خاننا»... وأرسل إليه يستدعيه..

وذات يوم شهدت شوارع المدينة رجلا أشعث أغبر، تَغْشاه وعَثاء السفر، يكاد يقتلع قدميه من الأرض اقتلاعًا من طول ما لاقى من عَناء، وبذل من جهد.. على كتفه اليمنى جراب وقصعة.. وعلى كتفه اليسرى قربة صغيرة فيها ماء.. وإنه ليتوكأ على عصًا لا يؤودها حمله الضامر الوَهْنان..

ودَلَف إلى مجلس «عمر» فى خطوات مُتَّئِدة.

– «السلام عليك يا أمير المؤمنين»..

ويرد «عمر» السلام، ثم يسأله وقد آلمه ما رآه عليه من جهد وإعياء.

– ما شأنك يا عمير؟؟

– شأنى ما تَرى.. ألست ترانى صحيح البدن، طاهر الدم، معى الدنيا أجرها بقرنها؟!

قال عمر: وما معك؟

قال عمير: معى جرابى أحمل فيه زادى، وقصعتى آكل فيها، وإداوتى، أحمل فيها وضوئى وشرابى، وعصاى أتوكأ عليها. وأجاهد بها عدوًّا إن عَرض، فو الله ما الدنيا إلا تبع لمتاعى..

قال عمر: أجئت ماشيًا؟؟

– نعم..

– أوَ لم تجد من يتبرع لك بدابة تركبها؟؟

– إنهم لم يفعلوا، وإنى لم أسألهم!

– فماذا عملت فيما عهدنا إليك به؟؟

– أتيتُ البلد الذى بعثتنى إليه، فجمعتُ صُلحاء أهله، ووليتهم جِباية فيئهم وأموالهـم. حتى إذا جمعوها وضعتُها فى مَواضعها، ولو بقى لك منها شىء لأتيتك به..

– فما جئتَنا بشىء؟

– لا...

قال «عمر» وهو منبهر سعيد: «جَدِّدوا لعمير عهدًا»..

قال عمير: «تلك أيام قد خلت، لا عملتُ لك ولا لأحد بعدك!!».

* * *

والويل الشديد للوالى الذى يفكر فى أن يهدى لعمر هدية مّا..

والحـق أنهم جميعًا كانوا من الفطنـة بحيث لم يتورطوا قط فى أمر كهذا!!

ولـم يفعله منهم مرة واحدة سـوى الرجـل الصالح الطيب «أبى موسى الأشعرى»..

فذات يوم عاد أمير المؤمنين إلى داره، فوجد رقعة من سـجاد لا تزيد على متر، وبعض متر، فسأل زوجه «عاتكة»..

- «أنَّى لك هذه؟؟»

قالت: أهداها إلينا أبو موسى الأشعرى.

- «أبو موسى؟؟.. ايتونى به!!».

ويجىء أبو موسى، تَسبقه مَخاوفه، ولا يكاد يقترب من «عمر» ويلمح «السجادة» فى يمينه، «والتحفز» فى وجهه حتى يبادره القول «لا تَعجَلْ علىَّ يا أمير المؤمنين»..

ولكن أمير المؤمنين، يُعاجله، ويلفح بالسجادة رأسه ويقول له:

- ما يحملك على أن تهدى إلينا؟ خذها فلا حاجة لنا فيها!!

والويل كذلك. لمن يطمع فى أن يتسوَّر مسئوليات هذا الرجل الكبير بشفاعة يشفعها فى غير حق..

حدَث يومًا أن أنزل بأحد ولاته جزاء، فانتهزت زوجه «عائكة» ساعة من ساعات فراغه وهدوئه، وشفعت للرجل. ولم تزد على أن قالت: يا أمير المؤمنين، فيمَ وَجَدْتَ عليه؟

هنالك انتفض «عمر»؛ كأنما انهدَّ من دين الله ركن، وصاح فيها:

- «يا عدوة الله، وفيم أنت وهذا؟!»

لو كان هذا الموقف من زوجته مشورة ورأيًا، لتقبل المشورة، وبحَث الرأى، فسنراه بعد حين ينحنى فى إعجاب وخشوع لسيدة عارضت رأيه فى تحديد المهور..

أما هنا، فقد تصور «عمر» الموقف على أنه تدخل فى المسئولية من غير مسئول، ولون من الشفاعة أو الوساطة لا يسكت «عمر» عليه، ولا يتسامح معه..

هذه مسئوليته تجاه ولاته..

فلننظر مسئوليته تجاه أموال الأمة.. وإنها لمسئولية تحير العقول وتبهر الأفئدة.

ولنبدأ بهذا النبأ.

يقول عبد الله بن عامر بن ربيعة:

– «صحبت عمر بن الخطاب من المدينة إلى مكة فى الحج، ثم رجعنا، فما ضُرب له فسطاط، ولا خِباء؛ ولا كان له بناء يستظل به. إنما يلقى كساء على شجرة فيستظل تحته!!».

ويقول بشار بن نمير:

«وسألنى عمر: كم أنفقنا فى حجتنا هذه؟ قلت: خمسة عشر دينارًا.. فقال: لقد أسرفنا فى هذا المال!!».

أرأيتم إلى الرجل الذى وُضِعَتْ تحت عتبة خزائنه أموال كسرى وقيصر، ثم يخرج إلى الحج وسط صحراء ملتهبة، فلا يهيئ لنفسه من ضرورات الرحلة شيئًا؟!... يذوق وَقْدة الحر، وقيظ الجبال المستَعِرَة، مثلما تذوقه كافة الناس، وينفق خلال رحلته كلها خمسة عشر دينارًا. ثم يقول: لقد أسرفنا؟!

قبـل أن يلى أمور المؤمنين ويصير أميرهم، كان تاجرًا يكسب عيشه ورزق أهله وعياله من التجارة، فلما تفرغ لمهمته الجديدة، فرض لنفسه من بيت المال ما يعيش به هو وعائلته فى مستوى الكفاف...

وكان مع الأيام تزداد تبعاته، وتزداد احتياجاته ونفقاته، ويرفع كلما هب الرخاء رواتب جميع المسلمين فى المدينة وخارجها، لكنه لا يفكر فى أن يزيد نفسه درهمًا.. حتى سمع أصحابه يومًا أن أمير المؤمنين يقترض ليعيش، فاجتمع نفر من الصحابة معهم عثمان، وعلى وطلحة، والزبير، واتفقوا على أن يتحدثوا معه، ويطلبوا إليه أن يزيد فى راتبه، ومخصَّصاته، لكنهم عادوا وتهيَّبوا محادثته، لأنهم يعرفون أنه فى هذه المسألة بالذات شديد الوطأة، لافِحُ الغضب..

قال عثمان: فلنَستَبرئ ما عنده من وراء وراء... واتجهوا إلى حفصة بنت عمر، واستكتموها أمرهم، وطلبوا إليها أن تستطلع أمر أبيها..

وذهبت حفصة إلى عمر متهيبة، وأخذت تسوق الحديث بحذر ورفق.

فقال عمر: من بعثك إلىَّ بهذا؟

قالت: لا أحد..

قال: بل بعثك بهذا قوم، لو عرفتهم لحاسبتهم..

ثم قال لابنته: لقد كنت زوجة لرسول الله فماذا كان يقتنى فى بيتك من الملبس؟

قالت: ثوبين اثنين!!

قال: فما أطيب طعمة رأيتيه يأكلها؟

قالت: خبز شعير طرى مَتْرود بالسمن..

قال: فما أوطَأ فراش كان له فى بيتك؟.

قالت: كساء ثخين. كنا نبسطه فى الصيف، فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه.. وتدثرنا بنصفه!!

قال يا حفصة: «فأبلغى الذين أرسلوك إلىّ. أن مَثلى ومثَل صاحِبَىَّ - الرسول وأبى بكر - كثلاثة سلكوا طريقًا. فمضى الأول وقد تزوَّد فبلَغ المنزل.. ثم اتبعه الآخر، فسلك طريقه فأفضى إليه.. ثم الثالث، فإن لزم طريقهما ورضى بزادهما أُلحق بهما.. وإن سلك غير طريقهما لم يجتمع بهما»!!!

أهناك كلام يصلح أن يكون تعليقًا على هذا المشهد الفذ العجيب؟!.. كلا.. فلندعه بدون تعليق!!!.

* * *

وكانت القيامة تقوم إذا سمع «عمر» أن درهمًا واحدًا من الأموال العامة قد اختُلِس، أو انتُهِب، أو أنفق فى ترف أو إسراف..

كان يرتَجف، ويُرجِف، كأنَّ خزائن المال كلها قد ضاعت، وليس درهما أو بعض درهم!!

وكان يُقسم لو أن بعيرًا من إبل الصدقة ضاعت على ضفاف دجلة أو الفرات، وعمر بالمدينة، لخاف أن يسأله الله عنه!!

وفي يوم صائف قائظ يكاد حره يذيب الجبال، أطل «عثمان ابن عفان» من بناية له بالعالية، فرأى رجلا يسوق أمامه بعيرين صغيرين والهواء الساخن يغشاه كَلفح السَّمُوم..

فقال محدثًا نفسه: ما على هذا الرجل لو أقام بالمدينة حتى يُبرد؟. وأمر خادمه أن ينظر مَن هذا الرجل العابر من بعيد، والذى تخفى الزوبعة والرمال السافيات معالمه..

ونظر الخادم من فُرجة الباب، فقال: أرى رجلا معممًا بردائه يسوق بَكْرَيْن أمامه. وانتظر حتى اقترب الرجل، فعرفه الخادم وصاح: إنه عمر.. إنه أمير المؤمنين!!

فأخرج عثمان رأسه من كُوّة صغيرة متوقيًا سخونة الريح، ونادى: ما أخرجك هذه الساعة يا أمير المؤمنين؟

أجاب عمر: بَكران من إبل الصدقة، تخلفا عن الحمى - المرعى - وخشيت أن يضيعا، فيسألنى الله عنهما!!

قال عثمان: هلم إلى الظل والماء، ونحن نكفيك هذا الأمر.

فقال له عمر: عد إلى ظلك يا عثمان..

قال: عندنا من يكفيك هذا الأمر يا أمير المؤمنين..

قال مرة أخرى: عد إلى ظلك يا عثمان.. ومضى لسبيله والحر يصهر الصخر..

فقال عثمان مأخوذًا ومبهورًا: «من أراد أن ينظر إلى القويِّ الأمين، فلينظر إلى عمر»!!!

والقوى الأمين يباشر مسئولياته المالية، مباشرة ذكيةً عميقة فهو لا يُعنىَ بالسهر على حفظ أموال الأمة فحسب، بل ويُعنىَ بالعمل على تنميتها، وإرباء الدخل القومى بكل سبيل ممكنة..

* فهو - مثلا - يقاوم فكرة توزيع أرض السواد على الفاتحين لأن ذلك يخلق طبقة محتكِرة، وفى الوقت نفسه، عاجزة عن خدمة الأرض، غير خبيرة بزراعتها، ويترك الأرض تحت أيدى زارعيها، مكتفيًا بالضرائب التى تدفع لبيت المال، ثم ينال كل مسلم حظه منها..

* وهو يشجع على إحياء الأرض الموات التى لا صاحب لها، والتى قال فيها الرسول ﷺ «من أحيا أرضًا ميتة فهى له»..

وحين يرى أمير المؤمنين أناسًا يضعون أيديهم على هذه الأرض، ويُسوِّرونها، ثم يهملون استصلاحها وزراعتها، يسن قانونًا يمنح «واضع اليد» فرصة مداها ثلاث سنوات فإذا عجز خلالها عن إحياء الأرض وتحويلها إلى حقل، أو بستان، أو مرعى، نُحِّى عنها، وأعطيت لغيره من القادرين..

* وهو كذلك يحض المسلمين على الكسب المشروع، فيغريهم بالتجارة الشريفة النظيفة، قائلا لهم: غدًا سيكون لكم أبناء وحفَدة، فماذا يغنى عنكم هذا الذى بأيديكم؟!

* وهو يعنى عناية خاصة بالثروة الحيوانية، فيخصص للماشية مرعى خصيبًا رحيبًا، يرعى المسلمون فيه ماشيتهم بغير مقابل، وإنه ليتعهد هذا المرعى دائمًا، وقلما كان يوم يمر دون أن يرى الناس «عمر»، قد خرج منتصف النهار، واضعًا ثوبه فوق رأسه ليقيه من الشمس، قاصدًا أرض الحمى والمرعى، يتعاهدها ويتفقدها، ويحذر حارسها من أن يسمح لأحد أن يَعضِد شيئًا من شجرها، أو أن يضرب فيها بفأس!!

***

ولا يخطر بالبال ونحن نتحدث عن المال وعن الدخل القومى أيام عمر، أننا نتحدث عن أموال شحيحة وموارد ضَحْلة، فإن «عمر» لم يمت إلا بعد أن كان يحرك يده القوية الأمينة فى دخل من أضخم الدخول يومئذ بعد أن آلت إلى الإسلام معظم ممتلكات الروم والفرس!!

ولم يمت «عمر» حتى كان هناك لكل فرد راتب سنوى يكفيه أو يقارب كفايته، لا فى عاصمة الدولة وحدها، وهى المدينة، بل فى كل أقطار الإسلام!!!

يقول له خالد بن عرفطة:

– «يا أمير المؤمنين تركتُ الناس يسألون الله أن يزيد فى عمرك من أعمارهم.. ما وَطئَ أحد القادسية إلا وعطاؤه ألفان، أو خمس عشرة مائة. وما من مولود يولد إلا ألحق فى مائة وجريبين كل شهر ذكرًا كان أو أنثى. وما يبلغ لنا ولد إلا ألحق على خمسمائة أو ستمائة»!!.

وحِرص عمر على تنمية الثروة، لم يحمله قط على سلوك سبيل فيها جشع أو إرهاق..

فالثروة عند عمر، فى خدمة الإنسان، وليس الإنسان فى خدمة الثروة!!

لهذا، كان يُنزل غضبه الشديد على كل وال يحرم أهل ولايته لكى يرفع إلى المدينة خَراجًا كبيرًا يظن أنه يُكسبه رضاء أمير المؤمنين..

وكان يأمر أن تقسم خيرات البلد – أىّ بلد – على أهلها أولا، فإذا بلغوا كفايتهم. رفع إلى عاصمة الدولة نصيبها..

وكان يأمر عماله أن يتقاضوا الضرائب فى رفق وعدل ورحمة.

حُمل إليه يومًا مال وفير من أحد الأقاليم، فسأل عن مصدره وعن سر وفرته وكثرته، فلما علم أنه من ضريبة الزكاة التى يدفعها المسلمون، وضريبة الجزية التى يدفعها أهل الكتاب، قال وهو ينظر إليها كثيرة عارمة:

- إنى لأظنكم قد أهلكتم الناس..

- قالوا: لا والله، ما أخذنا إلا صَفْوًا عَفْوًا...

قال: بلا سوط، ولا نوط؟؟

قالوا: نعم..

قال ووجهه يتهلل ويُشرِق: «الحمد لله الذى لم يجعل ذلك علىَّ ولا فى سلطانى»!!

وكان يُعفى من ضريبة أهل الكتاب، كل من عليه دين يستغرق ماله. ذلك لأنها لم تكن ضريبة إذلال، بل ضريبة دخل، فإذا عجز عنها دافعها، وضعت عنه فورًا!!

وبعد.. فهذا هو «عمر»، الحاكم المسئول.. وهذه هى طريقته فى تحمل مسئولياته جميعها.

هذا هو الرجل الذى كانت جيوشه تُدِيل مظالم الروم والفرس وتدكُّها دكًا، بينما هو يسير فى طرقات المدينة لابسًا ثوبًا به إحدى وعشرون رقعة.. ويبطئ عن المسلمين يومًا فى صلاة الجمعة ثم يعتذر إليهم حين يصعد المنبر قائلا:

- «حبَسنى قميصى هذا، لم يكن لى قميص غيره»!!..

إن مسئولياته المباركة دفعته إلى نهايات الطرق، وقمم المثل، فجاءت تصرفاته كلها تمثل أقصى ما يستطيع الكمال الإنسانى أن يبلغه..

* فَتِجاهَ مسئوليته عن نفسه وأهله، يُحمّلهم كل مغارم الحكم ويحرمهم من كل مغانمه!!
* وتجاه، وُلاته ومعاونيه، يختارهم بنفسه. ويُلزمهم صراطًا مستقيما أحدَّ من الشفرة، وأرقّ من الشعرة!!
* وتجاه أموال الأمة، يبلغ أقصى درجات الحِفاظ عليها، والزهد فيها!!
* وتجاه الجبارين العتاة، يبلغ أقصى أسباب الشدة والحزم!!
* وتجاه الضعفاء والبسطاء يبلغ غاية المدى فى الحدَب واللين!!

إن مسئوليته تقوده. وإنه لَيباشرها بروح المُخْبِت العابد الأوّاب..

وإن عظمة سلوكه، كرجل مسئول، لا تتمثل فى العجالة التى سردناها إلا كما يتمثل ضوء الشمس فى الشعاعة المتسلسلة من حنَايا النافذة!!!

ألاَ وإن عمر الحاكم، ليتعب كل حكام التاريخ، ويجعل مسئوليتهم فادحة وكبيرة..

ذلك أنه لم يكن إلهًا ولا ملكًا، ولا رسولاً يوحىَ إليه، إنما كان فردًا من الناس يجتهد رأيه، وينهض بعزمه. ولقد استطاع أن يبلغ ذلك الشأو البعيد فى عدله، وفى رحمته، وفى أمانته، فما عذر الآخرين إذا قعدت بهم عزائمهم؟!

إن «عمر» الحاكم، حجة الله على كل حاكم..
فإذا قال حاكم مّا، ساعة حسابه: يا رب عجزت..
قال الله له: ولماذا لم يعجز عمر؟؟!!

❑❑❑